

أدب الرافعي أدب ممتاز

للسيد كمال الحريري

المرحوم فقيده الأدب مصطفى صادق الرافعي في وصف الجمال وصوره والتعبير عن آثاره في النفس والروح طريقة ممتازة هو فيها طراز وحده بين أدباء العربية في جميع عصورها . فانت من وصفه الجمال الإنساني أمام لوحات بيانية سحرية ، تكاد الحياة والعاطفة والروح تنطق مجتمعة من خلالها . وهو في الوصف الروحي العاطفي للجمال الإنساني المادي ، صاحب مدرسة سدت في فراغ الأدب ثغرة ما أغنت استعاراته وتشابيهه عن سدها شيئاً . ولا غرو فإن روح التعبير عن الجمال التي تسلك إلى أنامل فيدياس الإغريق فأنشأت له من الصخر الأصم هياكل وتماثيل بشرية في عاطفتها وحيويتها وروحها ، قد هبطت بعد أجيال على قلم الرافعي ، فأوحت إليه تحفه الأربع^(١) في فلسفة الجمال والحب . وأنا في هذا الحوار الذي دار بيني وبين صديق الرسام إنما أعرض لونا جديداً خيولاً من أصباغ وصف الجمال البشري ، للأستاذ الرافعي وحده فضل استكشافه وفرضه على الأدب ، ولوددت أن الأدباء غمسوا فيه ريشاتهم حين رسمهم لوحات الجمال الإنساني . ولا بأس أن أحكم في تذوق هذا اللون أو النفور منه إلى أدباء الرسالة ليقولوا فيه كلمتهم

لي صديق فنان في الرسم ، ريشته لسانه ، وترجمانه ألوانه ، أسمعتة جملة لي في وصف أبي نواس وهي : لقد كان أبو نواس في مدائق الكرخ فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القندود وأوراد الحدود . ثم وقفت عند هذه الجملة منتظراً أن تروقه هذه الاستعارة . ولكنه ما زاد على أن قال : صعب على يا صديقي أن أتصور كيف يتجرد صاحبك أبو نواس من

(١) لفتي بها كتب رسائل الأحزان والسحاب الأحمر وأوراق الورد وحديث القمر

لأن فيه طبيعة الشاعر الملهم المتألم المتأمل .

ورجل العقل والعلم أحمد أمين يكتب بعقله وعلمه ليثير عقل الأمة وليزيد في علمها من علمها وتراثها فتسير في طريق العقل النير والعلم المحمص ، يفعل هذا لأن فيه طبيعة القاضي النزيه والعالم المخلص ... ورجل التربية والتجربة المازني يكتب من تجاربه ودراسه للنفس والأمة ليهذب من أخلاق الشباب ، فيسير على ضوء التجربة من حوادث الماضي . يفعل هذا لأن فيه طبيعة الأستاذ المربي

ورجل الإيمان والفضيلة الرافعي يكتب بإيمانه وعقيدته ليدافع عن إيمان الأمة ويثبت إيمان الأمة وعقيدتها ، فيسير بنور الإيمان ثابتة العقيدة طاهرة المبادئ جريئة في الحق صريحة في الباطل ، يفعل هذا لأن فيه طبيعة المسجد وشيوخ المسجد ، ولأن فيه أثر أمن ورائة الأسرة المجيدة والبيت الرفيع من الفاروق رضي الله عنه إلى عبد الغني وعبد القادر وأمين وعبد الرحمن ومصطفى صادق . أسمعت ووعيت ؟ قال : سمعت وزد . قلت : وإن هذا الارتباط بين كتاب الرسالة بدون تعمل وتعتمد من أعاجيب نهضة الأمة ويقظة الأمة ورغبة الأمة وتوفيق الرسالة ، فهي قد لفظت وتركت غير هؤلاء الذين شذوا عن هذه المبادئ وضمت من سار على نهجها وخطتها . تركت غير هؤلاء عن غير قصد ولا عمد ، وإن زعموا أنهم تركوها حاسبين أنها محتاجة اليهم مع أنها في غنى عنهم ، فليسوا هم أصحاب رسالة وإن أيدوها بموقفهم السلبي ومناقضتهم ، فإن جلاء الحق لا يظهر إلا بمزاحمة الباطل ، أسمعت ووعيت ؟ قال : هذا صحيح فردني . قلت : ماذا أزيدك ؟ وأخذتني عبرة وطفقت أشد بيت الرافعي الذي يرى به أحمد تيمور باشا ، وما أحقه أن يرى به .

تأني المصائب كالنقل في نسق أما مصيبتنا هذي فتخترع وبعد فهذه حادثة واقعة وحديث جرى مازدت في ذلك شيئاً . ويرحم الله أبا السامى فقد ناضل عن الأدب وجدد في البيان . أنه خلاق المعاني ومالك الالفاظ يتلاعب بها كيف شاء . ناضل عن الأدب حتى كاد يستقر ، ودافع عن الدين والقرآن والنبي صلى الله عليه وسلم دفاعاً يحز به الله عليه أحسن الجزاء أنه ولي الرحمة والغفران .

عن جريدة (المدينة المنورة)

محمد حسين زبرانه

هيكلة البشرى ليتجسد في جسم فراشة شاعرة ترتع بين أغصان القدود ووردات الخدود . وهل القدود عما تنبت الايكة والخدود مما تفتح عنه خيلة الورد ؟

قلت دهشاً : أين يذهب بك يا صاح ؟ ان هي إلا استعارة بديعة يلجأ اليها الأدباء حين يشبهون اعتدال القدر بالغصن وحرمة الخد بالورد . قال : ان أصحابك يسيثون الى الخدود الموردة والقدود المتأودة حين يشبهون الأولى بالورد والآخرى بالغصن . الغصن جميل والورد فتان ولكن جمالهما مادي لا يقاس الى جمال خد العذراء حين يتورد وقوام الحسناء حين يتأود .

وأماي الآن — وهنا أشار الى لوحته — منظر فاة حسناء تقطف من خيلة وروداً زاهية حمراء . فأيهما أجمل وأنضر وأحلى وأملح ؟ هذه الورد في يديها أم هذه الحرة في خديها ؟ ان حمرة خديها الملتهمين بدماء النضارة والصباء حرام أن تشبه بحمرة الورد . فليس في الورد خدود تلهب التهاباً ، ولا وجنات ترف نضارة وشباباً . وكيف يستوى خد الورد البارد الجامد الذي لا يحرك احساساً ولا يثير عاطفة ، وخد الفتاة المضرم من نار الصبي ، المتوهج من حرارة العاطفة ، المشبوب من خمرة الروح ، المطلول من ندى الشهوة . يثير في كل قلب ألواناً من المشاعر الراقدة ، وضروباً من الأحاسيس الهامدة ؟

وعيون النرجس على ما بها من جمال وتناسق بليدة جامدة فليس فيها هذب طويل يثير ، ولا جفن كحيل يغري . وأين من مقل النرجس ، ومخاطيس ، العيون ، وكهراؤها ، وسحرها واغراؤها ؟

الجمال بسر الكامن وجوهره الرمزي إنما هو فن الروح والعاطفة ، فكيف تعبر عنه وردة محمارة أو غصن أملود أو طاقة نرجس أو سبيكة ذهب أو فضة مجلوة أو ما شئت من هذه التشايب النفسية المادية التي خلقت لامتناع النظر اللبيف وإرضاء الحاسة الرغبية ؟ أما تمثيل الجمال وتصوير الخلاوة ففن تلعب فيه الروح أهم دور وأخطر ، وليست كل هذه

التشايب من فن الروح في مراح ولا مغدى . قلت : ولكن الجاحظ يقول في صفة جارية حسناء : وكأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمين أو كأنها خرطت من ياقوتة ، ثم ينقطع به نفس الوصف فلا يجعل للروح ونفها بالاً ولا ذكرأ . قال صديقي ولكن ما عجز عنه الجاحظ من الوصف الروحي للجمال المادي أدركه نابغة كتاب هذا الجيل الراقى . وهمك به من أديب يستعلن بالأدب العربي على آداب الأمم الراقية ويقول (أنا أدب لغة القرآن) .

ولقد لبثت زمناً أبغنى من الأدب العربي صوراً يابنة لوصف الجمال الانساني تكون في دقة تعبيرها كلوحات الزيت أو صور الفوتوغراف ، فلا أظفر منه إلا بهذه الاستعارات (الزهرية) أو التشايب الجوهرية حتى قرأت للرحوم كثره الثلاثة في فلسفة الحب والجمال فألقيت عصاي وآمنت بمعجزات الراقى .

قال الاستاذ رحمه الله في كتابه حديث القمر :
يا رحمة لهذا الجمال اوجه وضئ الطلعة كأنه السعادة المقبلة يصل إليه دم الشباب من القلب فيتحول فيه الى جمال وقتة ، وكأن معاني الحب التي تتحير في خديه حقيقة إلهية تطل على النفوس من وراء الشفق . فيه عينا تنظران والله بروح تكاد تنطق ولا يفهم عنها إلا كأنها ناطقة . وتفيضان دلالاتاً فتقرأ فكاً عما تلقيان على الروح فترة تعلم فيها من أحلام السماء وتستيقظ . وخدان تحير فيهما الجمال فوق يتلف عن يمين وشمال ، وتراهما أسيلين بارزين ، فيالله ! هل هما ثديان صغيران من الورد يرضعان طفل الحب ؟ قال : صديقي فكلم بين هذا الوصف الساحر الدقيق العاطفي وبين وصف صاحبك الجاحظ المادي السطحي : وكأنها طاقة نرجس وكأنها ياسمين ، ؟ . إن هذه التشايب على ما بها من جمال المادة والعطر واللون مادية لا ترسم حور العيون وسحر الجفون ولا تصور توابث النهود والحياة الكامنة في الخدود . أتدري لماذا ؟ لأن لغة العواطف يا صاحبي غير لغة الورد ، وتمايل الأغصان لا يشبه تأدد القدود

حب . كمال المحرري